﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ هنا هم الشركاء الطغاة بين داعية إلى نفسها، أم إلى أصنامها، دون الأولين الأكارم، فهؤلاء هم حَصَب جهنم وأولاء من السابقة لهم الحسنى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ... إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[1].

قال الأولون ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون الأتباع ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ فطبيعة الغاوي هي الإغواء، كما طبيعة المهتدي هي الإهداء، مهما كانت باختيار دون إجبار كما هيه، فكما غوينا دون قسر، كذلك أغويناهم دون قسر، فلا سلطان على القلوب في غواية ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[2] ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾[3].

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أترى «ما» هنا موصوفة، المتبرَّأ منه إلى الله هو عبادتهم إيانا، وهو في معنى قول قائدهم الأوّل: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[4]؟ وصيغته الصريحة «تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا»! أم موصولة، فالمتبرأ منه هو أنفسهم؟ وصيغته الصريحة «تبرأنا إليك منا حيث عبدنا»! أم هي نافية نكراناً لعبادتهم إياهم كما ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[5]؟ وقد تكون ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ تثبيتاً لعبادتهم إياهم!

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٩٨-١٠١.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الصافات، الآيات: ٣٠-٣٢.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٥) سورة يونس، الآية: ٢٨.

وعلّ الكل معنية فإن لكلٍّ شاهداً، فـ ﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾ مهما كان تشبيتاً لعبادتهم إياهم، ولكنها في الأصل عبادتهم لأهوائهم، فهي هي آلهتهم التي ألهتهم عن عبادة الله إلى ما تهواه أنفسهم من دون الله، و﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ من عبادتهم إيانا ومن أنفسنا إذ عُبدنا ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ عن عبادتهم إيانا إذ ما كانوا إيانا يعبدون، وإنما يعبدون أهواءَهم، أم لم تنحصر عبادتكم بنا، بل ومع أهوائكم وهي البادئة فيها، كما يلمح تقديم ﴿إِيَّانَا﴾ فلم يقولوا: «ما كنتم تعبدوننا» فإنها كاذبة، بل ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا. . .﴾ أي ما انحصرت عبادتكم فينا، بل ومعنا غيرنا وهي أهوائكم التي دعتكم إليها! وهي الأصل في عبادتكم المتخلفة، تبرأنا إليك من جريمة إغوائهم، ومن عبادتهم لنا، ومن أن يكونوا - في الحق - يعبدوننا فقط، وإنما هي أهواؤهم ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1] فإنما عبدوا أهواءهم مبدئياً، ولذلك أطاعونا فيما أغويناهم، إذ وجدوا فينا أهواءهم، وأما أنهم ما دعوهم إلى عبادتهم فلا تصريحة لها ولا لمحة، بل و﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾ وأضرابها تصريحة لهذه الدعوة النكدة الناكبة.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ليُنجوكم من عذاب الله كما وُعدتم فيهم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ شاؤوا أم أبوا إذ لا خيرة في أمر الله هناك ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فيما دعوهم إذ لا يستطيعون، وهم من الذين حق عليهم القول، وذلك عذاب نفسي فوق العذاب، ثم ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ من فورهم متحسرين متمنين ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ فلا يرووا العذاب، وقد تعني ﴿لَوْ﴾ هنا استحالة ذلك المتمني فقد مضى يوم خلاص ولات حين مناص، إذ يتمنون لو رُدُّوا فاهتدوا فلم يروا يومئذٍ العذاب.

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾:

هذا سؤال تأنيب وتهييب والله يعلم ماذا أجابوا المرسلين، وكما المرسلون يُسألون، إلّا أن هناك تخجيلاً وهنا تبجيل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ...﴾[1]، لا جواب هنا ولا هناك، فهنا ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[2] احتراماً على علمهم بما علمهم الله، وهناك تحيرٌ وانبهارٌ:

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

فرغم أنهم على علم بأنبائهم في تكذيب المرسلين عميت عليهم حتى يزدادوا حيرة على حيرة، فالذاكر لذنبه قد يعرضه اعتذاراً، وأخرى إنكاراً، وفي كلٍّ تخفيف وقتي، فحتى لا يخفَّف عنهم هول المطلع عميت عليهم الأنباء ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ بعضهم البعض عن أنبائهم لأنهم سواء في التعمية عليهم فهم حائرون مائرون، و﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ﴾ دون «عموا عنها» يلقي ظلام العمى عليهم ككل دونما منفذ ينفذون عنه، فهم في ذهولهم صامتون لا يدرون من أي إلى أيٍّ يميلون!.

وذلك - فقط - للمكذبين دون المؤمنين على اختلاف درجاتهم في إجاباتهم المرسلين:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

هنا تقابُلٌ بين الصفحة المظلمة للكافرين، والصفحة المشرقة للمؤمنين، و«عسى» تُرجِّيهم بذلك المثلث البارع من الفلاح، توبة وإيماناً وعملاً صالحاً، أن يكونوا من المفلحين، إذ لا يضمن لهم - ككل - العاقبة

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.

الحسنى، فقد يرجعون كفاراً في العاقبة، فليلجأوا إلى الله ملتمسين منه حسن العاقبة، كما وأن الإيمان بزميليه ليس هو السبب التام للإفلاح لولا رحمة من الله وفضل، فعساه لهذا وذاك يأتي هنا بعسى.

وقد تكون ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ. . .﴾ استثناء عن ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ تعميماً للسؤال في «يناديهم، أن الكل يسأل عنهم» ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بين تخجيل وتبجيل وكما يروى عن الرسول ﷺ [1].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

ذلك هو الجواب القاطع القاصع الأخير عن عاذرتهم أن لا مؤثر في الوجود إلّا الله، فلا طاقة مستقلة تتخطفكم عن أرضكم، مستغِلة ذلك دون أن يشاء الله، فإن له الخلق والأمر دونما جبر ولا تفويض.

فعلى العبد أن يقدِّم في الله ما في طوقه ووسعه، ولله الخيرة في أمره أن يفعل ما يشاء كما يشاء، دون اتكالية بلا سعي ولا عمل، ولا استقلالية لهم فيما يشاؤون، بل «أمر بين أمرين» أن يسعى ويتوكل على الله فيما يسعاه.

فلا إلغاء هنا للعقول والإرادات والنشاطات، ولا تفويض لها في الحصول على كلّ المرادات، بل عليهم أن يتقبلوا ما يقع ويرضوا بما وقع بعد ما بذلوا - دون تبذُّل - ما في وسعهم من التفكير والاختيار والتدبير، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فـ ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي خلقك واختارك وربك ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لا ما

(١) الدر المنثور ٥: ١٣٥ - أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد والنسائي والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد إلّا سيخلو الله به كما يخلو أحدهم بالقمر ليلة البدر فيقول: يا بن آدم ما غرك بي يا بن آدم ماذا عملت فيما علمت يا بن آدم ماذا أجبت المرسلين»؟.

يشاؤون ﴿وَيَخْتَارُ﴾ فيما يخلق أو يشرع دونما إجبار له فيما يخلق ويختار ما يشاء لا كما يشاؤون ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ لا في خلق ولا اختيار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في خلق أو اختيار.

إن ﴿يَخْلُقُ﴾ هنا تعم كلّ خلق للمادة الأولية أماهيه من خلق، لا شريك له في أيٍّ كان منه وأيان من أي كان، وكذلك «يختار» في حقلي التكوين والتشريع ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2] مع العلم أن خيرة الرسول إنما هي خيرة الله إذ لا يختار ما يختاره إلّا بوحي من الله، و«ما كان» نهي وليس نفياً يسلب عنهم أي اختيار. ومن اختياره تعالى أمرَ التشريع أن يختار الرسول الحامل لشرعته، وأوصياءَه المحمّلين تبيين شِرعته، فكما له اختيار الرسول دون سواه، كذلك له اختيار أوصيائه لا سواه، وترى ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ تنفي عنهم الاختيار في الأفعال التكليفية؟ كلّا! والاختيار فيها ثابت بدليل العقل والكتاب والسنة، والاختيار المنفي عنهم يختص بما يختص اختياره بالله، كخيرة الخلق والأمر تشريعاً وسواه من أمر الخلق، وكذلك الاختيار المطلق في الأفعال الاختيارية، فللّه الاختيار المطلق في كلّ ما يختار، وليس لنا مطلق الاختيار إذ قد تمنعنا موانع عما نختار، ثم قد نختار صالحاً أو طالحاً لا يختاره الله تكويناً فهنالك يكلُّ الاختيار كما في ذبح إبراهيم ولده، وفي حرقه عليه السلام بالنار، إذ لم يؤثر الاختيار هنا وهناك.

فالاختيار المنفي عنا في حقل التكوين هو الاختيار المطلق، وفي حقل التشريع هو مطلق الاختيار، فحين «لا جبر ولا تفويض بل أمرٌ بين أمرين»

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

لم يكن لنا في أفعالنا الاختيارية الاختيار المطلق، فإنه تفويض فإشراك بالله في ذلك الاختيار ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وحين لا شارع إلّا الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾(١) فمطلق الاختيار لنا في التشريع - وإنْ في حكم واحد - إشراك بالله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كما وأن اختيار الرسل وأوصياءَهم الحَمَلة لرسالاتهم من غير الله إشراك بالله في حقل التشريع ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقد استدل الإمام الرضا والقائم المهدي والإمام الصادق عليهم السلام بالآية وسواها على انحصار نصب الإمام بالله وانحساره عمن سواه(٢).

(١) سورة الشورى، الآية: ٢١.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٣٦ في أصول الكافي أبو القاسم بن العلا رفعه عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا عليه السلام حديث طويل في فضل الإمام وصفاته يقول فيه: هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم - إلى قوله عليه السلام - لقد راموا صعباً وقالوا إفكاً وضلوا ضلالاً بعيداً ووقعوا في الحيرة إذ تركوا الإمام عن بصيرة، زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين، رغبوا عن اختيار الله واختيار رسول الله إلى اختيارهم والقرآن يناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القَصَص: ٦٨] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزَاب: ٣٦].

وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه: قلت فأخبرني يا بن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم؟ قال: مصلح أم مفسد؟ قلت: مصلح، قال: فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟ قلت: بلى، قال عليه السلام: فهي العلة وأوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك ثم قال عليه السلام: أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وأنزل عليهم الكتاب وأيدهم بالوحي والعصمة إذ هم أعلام الأمم، أهدى إلى الاختيار منهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام، هل يجوز مع وفور عقلهما إذ هما بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان أنه مؤمن؟ قلت: لا - قال: هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من اعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه عزّ وجلّ سبعين رجلاً ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم فوقع خيرته على =

وقد تحتمل «ما» هنا بسبب كونها نفياً، أنها موصولة: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ اختياراً فوق كلّ اختيار، فلا يُمضى اختيار ولا يمشّى إلّا أن يختاره الله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[1] وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً، وهو قضية الأمر بين أمرين، إلّا أنه ليس يختار كلَّ ما كان لهم الخيرة، كما في قصتي إبراهيم الخليل وأضرابهما، إلّا أن تختص ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ بالبعض دونما استغراق، لا سيما وأنه ضمن المعني من «ما» إذ تعنيهما كما هو الصالح لساحة الربوبية.

ومن الخيرة الاستخارة في مورد الحيرة، حين لا تزول بتفكير ولا مشورة فيظل الإنسان حائراً لا يدري من أي إلى أي وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[2]:

= المنافقين قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] - إلى قوله - ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله عزّ وجلّ للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح وهو يظن أنه الأصلح دون الأفسد علمنا أن الاختيار لا يجوز أن يفعل إلّا من يعلم ما تخفي الصدور وتكن الضمائر وتنصرف إليه السرائر وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا أهل الصلاح»!، وفي تفسير الفخر الرازي ٢٥: ١٤ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى.

وفيه عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام في كلام طويل: وتعلم أن نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظة إلّا بقدرته ومشيته وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلّا بإذنه وإرادته قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ...﴾ [القصص: ٦٨].

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٣٥ - أخرج البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال كان يعلمنا السورة من القرآن يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري وعاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري وعاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ورضني به ويسمي حاجته باسمها.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

إذاً فهو - لا سواه - الذي له الخيرة إذ يعلم كائنات الصدور وكناناتها، فلا تخفى عليه خافية منها، فهو الذي يعلم صالحهم من طالحهم، تكويناً وتشريعاً وانتصاباً لرسل وأوصياء، وانتخاباً لآيات الرسالة وموادها كما يعلم بحكمته العالية، فيختار كما يعلم دون اختيار من سواه إذ لا يعلمون كما ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

«هو الله» لا سواه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ لا سواه ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ كله لا لسواه، ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ فلا يحمد سواه إلّا من يحمل رضاه حمداً متجهاً في أصله إلى الله ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ لا حكم بجنبه لسواه ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا سواه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ كما منه تبدؤون فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

وإنها كلمة التوحيد بأركانها الثلاثة بعد ركني السلب والإيجاب، فلأنه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ إذا ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ في كلّ حقوله واتجاهاته، في الدارين ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ تكويناً وتشريعاً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هنا في الخلق والأمر، وهناك في الحساب فالثواب والعقاب، ثم «هو» هنا كما ترجع إلى الذات المقدسة الغيبية، كذلك راجعة إلى «ربك» السابق ذكره خلقاً واختياراً وعلماً بما تكن صدورهم، ذلك «هو الله» دون من لا يخلق ولا يَختار ولا يعلم كما هو، فـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ في الذات والصفات وكافة شؤون الألوهية والربوبية، توحيدٌ بيِّنةُ الجهات، محلِّقة على كلِّ النشآت، في الذات وفي صفات الذات، يزيل كلّ وحشة ودهشة عن المؤمنين به، مطمئناً إياهم على أية حال، في كلّ حِلٍّ وترحال.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾:

سرمد الليل - وهو تداومة عذاب - كما سرمد النهار عذاب، وقد تلمح له ﴿عَلَيْكُمُ﴾ هنا وهناك، و﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيها لاختلاف شروط الحياة في الدارين، فليكن القياس في المعروف من الحياة الأولى، وترى كيف يجتمع سرمد الليل وإتيان الضياء فيه وهما لا يجتمعان مهما كان هناك إله يأتي بضياء، فالمحال محال سواء أكان لله أم لإله سواه؟

ليس القصد هنا إلى تحدِّي الجمع، بل هو نقض الإرادة الإلهية في سرمد الليل المعروض، فلو كان هناك إله يريد ليرحمكم عن بأس الليل السرمد لقسَمَ الزمان إلى ليل ونهار كما قسمه الله، أو ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ دون (نهار) هو من تعميم التنازل، أنه إذا يأتي بنهار فليأت بضياء مهما كان بغير الشمس، لأن سرمد الليل يقتضي تباعد الشمس لحد لا تضيء هذه الكرة، وإذا أتي بالشمس فقد أتي - بطبيعة الحال - بكلا الليل والنهار قضية حراك الأرض الدورانية.

والقصد من ذلك التحدي ليس هو نقض الإرادة الإلهية ككل، بل هو تتميمها لو أنه جعل عليكم الليل سرمداً، فليكن الإتيان بضياء دون نهار فيه استئصال إرادته عن بكرتها.

فالناس متشوقون إلى فلق الصباح حين يطول بهم الليل أيام الشتاء، أم لا يهنأ لهم الليل لعارض يعرضهم، فيحنُّون إلى ضياء الشمس، فكيف بهم لو فقد الضياء عن بكرته، فإن سرمد الليل بظلامه يُظلم الحياة ويكدِّرها، على فرض إمكانية الحياة إن جعل الليل سرمداً، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ إلى هذه الذكريات التي توقظكم من همود الإلف والعادة في تتابع الليل والنهار؟.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

فالليل سكَن والنهار فيه ابتغاء فضل من الله وإبصار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إلى ضوء النهار الذي هو فضل وإبصار كيف يصبح عذاباً إن كان سرمداً، فكلا الليل والنهار رحمة متعادلة معتدلة:

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

فلكلٍّ من الليل والنهار خاصةُ رحمته، من سكن الليل وإبصار النهار: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[1].

فأصل السكن وضابطته هو في الليل، كما أصل الإبصار والابتغاء من فضل الله ضابطة في النهار، مهما تبادلا فيهما أحياناً لضرورة معاكسة: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[2].

وآيتنا هنا عوانٌ بين الآيتين، فاللف والنشر المرتب بين «بالليل والنهار» وبين ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ينحو نَحْوَ الأولى، وعدم ذكر كلٍّ بعد كلٍّ يلمح إلى الأول، والأولى أولى لأولوية الترتيب، والثانية هامشية إذا اقتضت الحال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ في الترتيب الأصل، وفي المعاكسة الفرع، فإنهما على اختلافها نعمة ورحمة، قبال الرحمة والنقمة في سرمد الليل أو النهار.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

(١) سورة يونس، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٣.